حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة
مجلة علمية محكمة

تزكية النفس
وأهميتها للدعاة إلى الله تعالى

إعداد

الأستاذ الدكتور/ السيد عبد اللطيف عبد الحميد.

قسم أصول الدين، كلية الشريعة والقانون

الجامعة الإسلامية، ساي، النيجر

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث باللغة العربية:

تزكية النفس وأهميتها للدعاة إلى الله تعالى

السيد عبد اللطيف عبد الحميد.

قسم أصول الدين، كلية الشريعة والقانون، الجامعة الإسلامية، ساي، النيجر.

الإيميل: aboukhaled88888@gmail.com

الملخص:

إن تزكية النفوس أحد مهام الدعاة إلى الله تعالى؛ فينبغي أن يعلم الداعية أنه لابد أن يبدأ بنفسه أولا؛ حتى يحصل له التأثير الدعوي ثانيا، ويهدف هذا البحث إلى إبراز أحد أهم جوانب القدوة في حياة الدعاة، وهو جانب التزكية، ولهذا اخترت لهذا البحث عنوانا:" تزكية النفس وأهميتها للدعاة إلى الله تعالى".

وسأستخدم في هذا البحث المنهج الاستنباطي والتحليلي.

وقد تناول هذا البحث: موضوع تزكية النفس وأهميتها للدعاة إلى الله تعالى، فبدأ بتعريف التزكية والألفاظ التي لها صلة بالمصطلح كالتعديل والتوثيق؛ لما للتعريف من أهمية بالغة في المعنى المراد في البحث، ثم تناول الباحث أهمية التزكية ومكانتها في الإسلام عموما، فهي أحد وظائف النبي ﷺ، وربع الشريعة الإسلامية. ثم تناول بعد ذلك أهم الوسائل التي من خلالها يصل المسلم إلى التزكية بدءا بالإيمان بالله، والمحافظة على الفرائض، والإكثار من النوافل...، ثم تناول بعد ذلك أهم الثمرات المترتبة على التزكية، والتي منها الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، ثم تناول بعد ذلك أهمية التزكية للدعاة إلى الله تعالى، فهو أهم جوانب القدوة بالنسبة للداعية، وهو الجانب الخفي الذي لا يطلع عليه أحد إلا الله؛ ولذا ينبغي على الداعية العناية به.

ثم خلصت الدراسة إلى العديد من النتائج والتي منها بيان معاني التزكية، وذكر أهميتها،

والوسائل التي يسلكها المسلم للوصول إلى التزكية، وبيان أهم ثمارها، ومدى احتياج الدعاة لها، ثم ذكر الباحث بعض التوصيات.

كلمات مفتاحية: تزكية النفس، أهمية التزكية، الشريعة الإسلامية، الدعوة والدعاة.

ملخص البحث باللغة الإنجليزية:

Self- Purification and its Importance for the Callers for Almighty Allah

Elsayed Abdel- Latif Abdel- Hamid

Department of Islamic Theology, Faculty of Sharia and Law, Islamic University, Say, Niger.

E-mail: aboukhaled88888@gmail.com

Abstract:

Self- purification is one of the tasks of those who call for Almighty Allah. The caller for Allah should start by himself because charity begins at home in order to achieve the intended influence of his call. Accordingly, this research paper aims at highlighting one of the most important aspects of role models in the lives of the callers for Allah. This intended aspect is called self- purification. Therefore, this research paper is entitled "Self-Purification and its Importance for the Callers for Almighty Allah". The paper applies the deductive and analytical approaches. Generally, this research paper has discussed the topic of self-purification and its importance for the callers for Allah. First, the paper defines self- purification and the terms related to this concept such as amendment and authentication. The reason why the research paper begins by defining self- purification can be traced back to its crucial importance for the intended meaning of the paper. Next, the researcher has demonstrated the importance of self – purification and its significance for Islam in general for being one of the duties of the Prophet (peace be upon him), and it also constitutes a quarter of the Islamic Sharia. Then the research paper has referred to the most important means through which a Muslim can fulfil self- purification starting from believing in Allah, preserving the obligatory duties and increasing the

voluntary prayers. After that, the research paper has drawn attention to the most important outcomes of self- purification such as attaining achievement and success in this world and in the hereafter. Next, the paper has highlighted the importance of self-purification for the callers for Almighty Allah as it embodies one of the most important aspects of role- modelling for the caller which is the unseen side that no one knows except Allah. Therefore, the caller for Almighty Allah has to care for self-purification. The research paper has concluded with many findings such as clarifying the meaning of self- purification, its importance, the means through which a Muslim accomplishes purification, displaying the most important outcomes of purification and how far the caller for Allah needs it. Finally, the research paper has referred to some recommendations .

Key words: self- purification, the importance of self-purification, the Islamic Sharia, callers for Almighty Allah.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من أرسله ربه رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين...، وبعد.

إن الدعاة إلى الله ﷻ موكول إليهم أعظم المهام، وهي الدعوة إلى الله تعالى، وهي من مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]، وقد حصر الله ﷻ مهمة النبي - ﷺ - مع أمته في مهام ثلاث: تلاوة الآيات، والتزكية، وتعليم الكتاب والحكمة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[2]، فالتزكية إحدى المهمات التي من أجلها بعث الرسول -ﷺ-، بل هي غاية الرسالات وثمرتها.

وإذا كانت تزكية النفوس أحد مهام الدعاة إلى الله تعالى؛ فينبغي لنا أن نعلم أن الداعية لابد أن يبدأ بنفسه أولا؛ حتى يحصل له التأثير الدعوي ثانيا، فلا يؤثر إلا المتأثر، فتأثير بعض الوعاظ يحمل كثيرًا من الناس على الرجوع عن حال إلى حال، وعلى الخروج من العقار والمال، وليس هذا تأثير الكلام خاصة وإنما العمدة فيه على تأثير النفس، وقد كان بعض الوعاظ الصالحين يعظ فيتوب قوم ويبكي ناس ويموت آخرون، "قال عمر بن ذرّ[3]

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٣) عمر بن ذر بن عبد الله الهمداني أحد بني مرهبة. ويكنى أبا ذر. وكان قاصا. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عبد الله الأسدي: توفي عمر بن ذر سنة ثلاث وخمسين ومائة في خلافة أبي جعفر. راجع: =

لأبيه: مالك إذا تكلمت أبكيت الناس فإذا تكلم غيرُك لم يُبكهم قال: يا بني ليست النائحة الثَّكلى مثل النائحة المستأجَرة."[1]

ورحم الله ابن القيم[2] يوم قال: "كلام المتقدمين قليلٌ كثير البركة، وكلام المتأخرين كثيرٌ طويل قليل البركة"[3]. فالسر في قلة البركة في العلم، والتعلم اليوم وعدم التأثر والتأثير هو الغفلة عن الإخلاص لله في الطلب، الغفلة عن الإخلاص لله في التعليم والتدريس.

فيجب أن نطهر نفوسنا، وننقِ قلوبنا، لا من أجل أن ننتفع بالعلم فقط، بل ومن أجل أن ينفع الله بعلمنا ويفتح لنا القلوب، فليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية، وكم من حامل علم لا أثر لعلمه في عمله؛ لأنه لم يكن لعلمه أثر في تزكية نفسه، فكيف يظهر بعد ذلك في قوله أو في فعله؟! وصاحب العلم إنما ينفعه علمه إذا زكى نفسه

=

الطبقات الكبرى، لابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، ج٦، ص: ٣٤٣.

(١) العقد الفريد، أبو عمر، أحمد بن عبد ربه، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/١، ١٤٠٤ هـ، ج٣، ص: ١٤٩.

(٢) ابن قَيِّم الجَوْزِيَّة (٦٩١ - ٧٥١ هـ = ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرْعي الدمشقيّ، أبو عبد الله، شمس الدين، مولده ووفاته في دمشق. تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شئ من أقواله، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه. وكان حسن الخلق محبوبا عند الناس، أغري بحب الكتب، فجمع منها عددا عظيما، وكتب بخطه الحسن شيئا كثيرا، وألّف تصانيف كثيرة.، راجع: الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م، ج٦، ص: ٥٦.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي –بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ ه -١٩٩٦م، ج١، ص: ١٥٩.

أولاً، وحينئذ يؤثر بقوله وعمله في الناس.

وقد أردت أن أبرز جانبا مهما من جوانب القدوة في حياة الدعاة، وهو جانب التزكية، ولهذا اخترت لهذا البحث عنوانا: " تزكية النفس وأهميتها للدعاة إلى الله تعالى".

وسأستخدم في هذا البحث المنهج الاستنباطي والتحليلي.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة، وخمسة مباحث، وخاتمة.

المبحث الأول: في معنى التزكية والألفاظ ذات الصلة.

المبحث الثاني: أهمية تزكية النفس ومكانتها في الإسلام.

المبحث الثالث: وسائل تزكية النفس.

المبحث الرابع: فوائد وثمار تزكية النفس.

المبحث الخامس: الدعاة وحاجتهم للتزكية.

ثم الخاتمة وفيها أبرز النتائج والتوصيات، ثم المصادر والمراجع.

المبحث الأول

التعريف بالتزكية، والألفاظ ذات الصلة

التزكية لغة: الزَّكاةُ فِي اللُّغَةِ الطَّهارةُ والنَّماءُ والبركةُ والمدْحُ، كلُّ ذَلِك قد اسْتُعْمِل فِي القُرْآنِ والحدِيثِ، ووَزْنُها فَعلةٌ كالصَّدَقَةِ، فلمَّا تَحرَّكَتِ الواوُ وانْفتَحَ مَا قَبْلَها انْقَلَبَتْ ألفا، وَهِي مِنَ الأَسماءِ المُشْتركةِ بينَ المخْرَج والفِعْل، فتُطْلَق على العَيْنِ وَهِي الطَّائفةُ مِن المالِ المُزَكَّى بهَا، وعَلى المعْنَى، وَهُوَ التَّزْكِية؛ وَبِه فُسِّر قوْلُه تَعَالَى: ﴿وَالَّذين هُم للزَّكاةِ فاعِلُون﴾[1]، فإنَّما المُرادُ بِهِ التَّزْكِيَة لَا العَيْن؛ فالزَّكاةُ طُهْرةٌ للأَمْوالِ وزَكاةُ الفِطْرِ طُهْرةٌ للأَبْدانِ.[2]

وأصل الزكاة النمو الحاصل عن بركة الله تعالى ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية، يقال زكا الزرع يزكو إذا حصل منه نمو وبركة. وقوله تعالى: ﴿أيها أزكى طعاما﴾[3] إشارة إلى ما يكون حلالا لا يستوخم عقباه، ومنه الزكاة لما يخرج الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء، وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة، أو لتزكية النفس أي تنميتها بالخيرات والبركات أولهما جميعا فإن الخيرين موجودان فيها. وبزكَاءِ النَّفْسِ وطَهارَتِها يَصِيرُ الإِنْسانُ بحيثُ يسْتَحقُّ فِي الدُّنيا الأَوْصافَ المَحْمودَةَ وَفِي الآخِرَةِ الأَجْرَ والمَثُوبَةَ، وَهُوَ أَن يَتحرَّى

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٤.

(٢) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ، ج١٤، ص: ٣٥٨، تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج٣٨، ص: ٢٢١.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١٩.

الإِنْسانُ مَا فِيهِ تَطْهِيره، وَذَلِكَ يُنْسَبُ تارَةً إِلَى العَبْد لاكْتِسابه ذلكَ نَحْو قوْلِه، ﷻ: ﴿قد أَفْلَح مَنْ زَكَّاها﴾[1]؛ وتارَةً يُنْسَبُ إِلَى اللهِ، ﷻ، لكوْنِه فاعِلاً لذلِكَ فِي الحقِيقَةِ نَحْو قوله تعالى: ﴿ولكنَّ اللهَ يُزَكّي مَنْ يَشاءُ﴾[2]؛ وتارَةً إِلَى النبيِّ ﷺ لكوْنه واسِطَة فِي وُصولِ ذلكَ إِلَيْهِم نَحْو قوْلِه تعالى: ﴿يَتْلُو عَلَيْكم آياتِهُ ويُزَكِّيهم﴾[3]، وتارَةً إِلَى العِبادَةِ الَّتِي هِيَ آلَةٌ فِي ذلِك نَحْو قوْله تَعَالَى: ﴿لأَهِبَ لكَ غُلاماً زَكِيّاً﴾[4] أَي مُزَكىً بالخِلْقَةِ وذلكَ على طَرِيقِ مَا ذَكَرْناه من الاجْتِباءِ، وَهُوَ أنْ يجعلَ بعضَ عِبادِهِ عالِماً لَا بالتَّعَلُّمِ والمُمارَسَةِ، بل بقوَّةٍ إلهيَّةٍ كَمَا يكونُ لكلِّ الأَنْبياءِ والرُّسُل.[5]

مما سبق يتبين أن التزكية للنفوس: تطهيرها، وتطبيبها، وتنقيتها من قبائحها؛ فالنفس الزكية: هي الطيبة الطاهرة البعيدة عن كل ما يدنس النفوس من غش وحقد وحسد وظلم وسخيمة، وهذه المعاني اللغوية لا تختلف عن معنى التزكية في الاصطلاح.

فالتزكية في اللغة تدور حول الطهارة والنماء والبركة، وهي شرعاً تدور حول هذا أيضاً. فالتزكية شرعاً: تطهير النفس والقلب من أمراضها ومن ظلماتها ومن نجاستها ومن شهواتها الحسية والمعنوية. "فصلاح العباد وفلاحهم وفوزهم ونجاتهم في تعهد أنفسهم بالإصلاح،

---

(١) سورة: الشمس، الآية: ٩.

(٢) سورة النور، الآية: ٢١.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٤) سورة مريم، الآية: ١٩.

(٥) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ، ج١، ص: ٣٨٠ وما بعدها.

وتطهير بواطنهم وظواهرهم من الشرك بالله ﷻ ومن سائر الصفات المذمومة، وتحليتها بالتوحيد واستسلامها للشرع المجيد. وقد أجمع علماء القلوب على أن القلوب لا تصل إلى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة زكية، والله ﷻ طيب لا يقبل إلا طيبا، فكل ما طابت النفس وزكت قربها الله ﷻ، فتسعد بالله ﷻ، وتأنس بالله ﷻ، وتستغني بالله ﷻ."[1]

ولابد من التأكيد هنا أنه ليس المراد بتزكية النفس اقتلاع الأوصاف المذمومة منها؛ لأن هذا يخالف طبيعة النفس وصفاتها وخصائصها التي خلقها الله عليها، وإنما المقصود غلبة صفات الخير، وضبط صفات الشر وتوجيهها بما يرضي الله سبحانه؛ وبذلك يتم تطهير النفس من نزعات الشر والإثم، والتخلي عن الأخلاق المذمومة، والتحلي بالأوصاف المحمودة حتى يبلغ المسلم درجة الإحسان.

الألفاظ ذات الصلة بالتزكية:

أردت أن أشير هنا إلى الألفاظ المستخدمة في معاني التزكية، وخاصة عند الفقهاء والمحدثين. فمن الألفاظ الواردة في اصطلاحات الفقهاء التزكية، وعند المحدثين التعديل، والتوثيق، والتزكية، وسوف أوضح معاني ذلك في السطور الآتية.

التزكية عند الفقهاء: إذا كانت التَّزْكِيَةُ لُغَةً: مَصْدَرُ زَكَّى. يُقَال: زَكَّى فُلاَنٌ فُلاَنًا: إِذَا نَسَبَهُ إِلَى الزَّكَاءِ، وَهُوَ الصَّلاَحُ. وَزَكَا الرَّجُل يَزْكُو: إِذَا صَلُحَ، فَهُوَ زَكِيٌّ وَالْجَمْعُ أَزْكِيَاءُ.[2]

---

(١) موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net، ج٧، ص: ٩٥.

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المكتبة العلمية – بيروت، ج١، ص: ٢٥٤.

وَالْفُقَهَاءُ يُعَبِّرُونَ عَنِ النِّسْبَةِ إِلَى الصَّلاَحِ بِالتَّزْكِيَةِ أَوِ التَّعْدِيل فَهُمَا مُتَرَادِفَانِ. وَيُعَرِّفُونَ التَّزْكِيَةَ فِي بَابِ الْقَضَاءِ بِأَنَّهَا: تَعْدِيل الشُّهُودِ. وَتَزْكِيَةُ الرَّجُل مَالَهُ: أَنْ يُخْرِجَ الْقَدْرَ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ مِنَ الزَّكَاةِ فِيهِ. وَقَدْ أَطْلَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى مَنْ يُبْعَثُ إِلَيْهِ لِلتَّحَرِّي عَنِ الشُّهُودِ (الْمُزَكِّي) وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ يُزَكِّي وَيَجْرَحُ، وَلَكِنْ وُصِفَ بِأَحْسَنِ الْوَصْفَيْنِ.(١)

فالتزكية في اصطلاح الفقهاء: الإِخْبَارُ بِعَدَالَةِ الشَّاهِدِ، وَالتَّعْدِيل مِثْلُهُ وَهُوَ نِسْبَةُ الشَّاهِدِ إِلَى الْعَدَالَةِ. وسئل سحنون(٢): كيف يعدل الرجل عند القاضي؟ فقال: يقولون للقاضي هو عندنا من أهل العدل والرضى جائز الشهادة، وهذه تزكية أيضا.(٣) فَالتَّزْكِيَةُ وَالتَّعْدِيل تَوْثِيقٌ لِلأَْشْخَاصِ لِيُؤْخَذَ بِأَقْوَالِهِمْ، وَعَلَى هَذَا فَالتَّوْثِيقُ أَعَمُّ لأَِنَّهُ يَشْمَل التَّزْكِيَةَ وَغَيْرَهَا مِنَ الرَّهْنِ وَالْكَفَالَةِ وَغَيْرِهِمَا.(٤)

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، الطبعة: (من ١٤٠٤ – ١٤٢٧ هـ)، الطبعة الثانية، دار السلاسل – الكويت، ج١١، ص: ٢٣٩.

(٢) سُحْنُونٌ الْمَالِكِيُّ صَاحِبُ الْمُدَوَّنَةِ فَهُوَ أَبُو سعيد عبد السلام بن سعيد بن جندب بْنِ حَسَّانَ بْنِ هِلَالِ بْنِ بَكَّارِ بْنِ رَبِيعَةَ التَّنُوخِيُّ، أَصْلُهُ مِنْ مَدِينَةِ حِمْصَ، فَدَخَلَ بِهِ أَبُوهُ مَعَ جُنْدِهَا بِلَادَ الْمَغْرِبِ فَأَقَامَ بها، وانتهت إليه رياسة مذهب مالك هنالك، وَكَانَ قَدْ تَفَقَّهَ عَلَى ابْنِ الْقَاسِمِ، ولاه محمد بن الأغلب القضاء بإفريقيا، وذلك سنة ٢٣٣ إِلَى أَنَّ تُوُفِّيَ فِي سنة مائتين وأربعين للهجرة. راجع: البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي-بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨، هـ – ١٩٨٨م، ج١٠، ص: ٣٥٦.

(٣) البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، تحقيق: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ –١٩٨٨م، ج١٠، ص: ١٢٩.

(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية، ج١٤، ص: ١٣٤.

ويكفي في التزكية شاهدان يشهدان أنه عدل رضي، ولا يحتاج في التزكية أن يقول: علي ولي، وهذا قول أكثر أهل العلم.[1]

التوثيق: من الألفاظ ذات الصلة بالتزكية، وهو لغة: (وَثَقَ) الْوَاوُ وَالثَّاءُ وَالْقَافُ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى عَقْدٍ وَإِحْكَامٍ. وَوَثَّقْتُ الشَّيْءَ: أَحْكَمْتُهُ. وَنَاقَةٌ مُوَثَّقَةُ الْخَلْقِ. وَالْمِيثَاقُ: الْعَهْدُ الْمُحْكَمُ. وَهُوَ ثِقَةٌ. وَقَدْ وَثِقْتُ بِهِ.[2]، و (وَثِقَ) بِهِ يَثِقُ بِكَسْرِ الثَّاءِ فِيهِمَا (ثِقَةً) إِذَا ائْتَمَنَهُ.[3]

فالتوثيق من الألفاظ المرادفة للتزكية، وإن كان التوثيق أعم من التزكية كما مرَّ.

التعديل: من الألفاظ ذات الصلة بالتزكية، وهو في اللغة: الْعَدْلُ مِنَ النَّاسِ: الْمَرْضِيُّ الْمُسْتَوِي الطَّرِيقَةِ.[4] وتَعْديلُ الشهود: أن تقول إنَّهم عُدولٌ.[5]

وهو في اصطلاح الفقهاء: تَعْدِيلُ الرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ الْقَاضِي هُوَ عِنْدَنَا مِنْ أَهْلِ الْعَدْلِ

---

(١) الشرح الكبير على متن المقنع، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الحنبلي، أبو الفرج، شمس الدين، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، ج١١، ص: ٤٥٠.

(٢) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر-بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ج ٦، ص: ٨٥.

(٣) مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية -الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ص: ٣٣٢.

(٤) مقاييس اللغة، ج٤، ص: ٢٤٦.

(٥) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ج٥، ص: ١٧٦١.

وَالرِّضَى جَائِزُ الشَّهَادَةِ.[1]

وفي اصطلاح المحدثين: التعديل: وصْف متى الْتحق بالراوي أو الشاهد حُكم بقبول روايتهما أو قوّاها. وضده الجرح، وهو وصْف متى الْتحق بالراوي أو الشاهد رَدَّ روايتهما أو ضعّفها.[2]

وخلاصة القول: أن تزكية الشخص أو توثيقه أو تعديله، كل هذا ناتج عن صلاح هذا الفرد وحسن علاقته بالله تعالى، وهذا الصلاح ظاهرا في السلوك والأفعال، وإن كان في الأصل ناتجاً عن صلاح الباطن.

(١) الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية، محمد بن قاسم الأنصاري، أبو عبد الله، الرصاع التونسي المالكي، المكتبة العلمية، الطبعة: الأولى، ١٣٥٠هـ، ص: ٤٥٥.

(٢) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، مطبعة سفير بالرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ، ص: ١٧٠.

المبحث الثاني

أهمية تزكية النفس ومكانتها في الإسلام.

لما دعا إبراهيم عليه السلام ربه طالبًا من يخلفه في الدعوة إلى الله من ولده قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾(١).

فمن أهم أعمال الرسل التزكية ومن مهمات الرسل التزكية، حدد إبراهيم عليه السلام مهمة الرسول: تلاوة آيات الله، تعليم الكتاب والحكمة، والتزكية، واستجاب الله هذا الدعاء بل وامتن به على المؤمنين في ثلاثة مواضع من القرآن، قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٤).

والملاحظ في ترتيب سيدنا إبراهيم-عليه السلام-في وظيفة الرسول هو: تلاوة الآيات، ثم تعليم الكتاب والحكمة، ثم التزكية. أما الترتيب الرباني في الآيات الثلاث هو: يتلو عليكم آياتنا، ثم ويزكيهم، ثم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فقدم التزكية قبل العلم، وهذا من ترتيب الأولويات

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٤) سورة الجمعة، الآية: ٢.

الدعوية، فعلماء السلوك يقولون: التخلية تسبق التحلية، والشرع جاء لتزكية النفس والقلب وهما الأساس. إن التزكية أصل أصيل من أصول هذا الدين.

من خلال ما سبق يمكن القول: أن تزكية النفوس مطلب عظيم من مطالب الرسالة، بل هي ربع الرسالة الإسلامية.

وتكمن أهمية التزكية في حرص النبي- ﷺ - أن يدعو بالتزكية، فمن دعائه -ﷺ-: "اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا."[1]

والتزكية ليست بالأمر السهل الهين، فتزكية النفوس عمل شاق، والأمر كله بيد الله ﷻ، وبعد فضله ومنته، فتزكية النفوس بالله لا بالنفس، قال تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾[2]"أَيْ: لَوْلَا هُوَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ التَّوْبَةَ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ، وَيُزَكِّي النُّفُوسَ مِنْ شِرْكِهَا وَفُجُورِهَا وَدَسِّهَا وَمَا فِيهَا مِنْ أَخْلَاقٍ رَدِيئَةٍ، كُلٌّ بِحَسَبِهِ، لَمَا حَصَّلَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ زَكَاةً وَلَا خَيْرًا."[3]

ولقد أقسم الله تعالى أحد عشر قسمًا متتاليًا ما أتت إلا في موضع واحد من كتاب الله ﷻ، على أن فلاح النفوس منوط بتزكيتها، فقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، بَابُ التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عُمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يُعْمَلْ، رقم: ٢٧٢٢.

(٢) سورة النور، الآية: ٢١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر-بيروت، الطبعة الجديدة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ج٣، ص: ٣٣٦.

دَسَّاهَا﴾[1]."وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ أي: قد أفلح من زكَّى الله نفسه، فكثَّر تطهيرها من الكفر والمعاصي، وأصلحها بالصالحات من الأعمال. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ يعني: من دَسَّس الله نفسه فأَخْمَلها، ووضع منها، بخُذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصِيَ، وترك طاعة الله"[2].

وتزكية النفوس ملاك دعوة الرسل بعد التوحيد، فهذا موسى عليه السلام يقول لفرعون: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾[3]"يقول تعالى ذكره لنبيه موسى: قل لفرعون: هل لك إلى أن أرشدك إلى ما يرضي ربك، وذلك الدين القيم (فَتَخْشَى) يقول: فتخشى عقابه بأداء ما ألزمك من فرائضه، واجتناب ما نهاك عنه من معاصيه. "[4]

والتزكية هي طريق الجنة، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[5] فهي شرط إذاً لدخول الجنة.

إن الإنسان السوي هو الذي ينشد الكمال، وهذا لا يكون إلا بالتزكية، قال الغزالي: "وَكَمَا أَنَّ الْبَدَنَ فِي الِابْتِدَاءِ لَا يُخْلَقُ كَامِلًا، وَإِنَّمَا يكمل ويقوى بالنشوء وَالتَّرْبِيَةِ بِالْغِذَاءِ؛ فَكَذَلِكَ النَّفْسُ تُخْلَقُ نَاقِصَةً قَابِلَةً لِلْكَمَالِ، وَإِنَّمَا تُكْمَلُ بِالتَّرْبِيَةِ وَتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ وَالتَّغْذِيَةِ

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ١-١٠.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، تحقيق، أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ج٢٤، ص: ٤٥٧.

(٣) سورة النازعات، الآيات: ١٨ - ١٩.

(٤) تفسير الطبري، ج٢٤، ص: ٢٠١.

(٥) سورة النازعات، الآيات: ٤٠ - ٤١.

بِالْعِلْمِ"[1].

إن تزكية النفس لها أهمية بالغة من حيث أنه موضوع يتعلق بالدنيا والآخرة، يتعلق بالدنيا في أخلاق الإنسان وسلوكه وتعامله مع ربه ومع نفسه ومع الناس، وفي الآخرة لأن الله إنما يجزي عباده الذين استقاموا على منهجه عقيدة وعبادة وسلوكا ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]، أي: " وَلَا ينفعُ يَوْمئِذٍ إِلَّا الإيمانُ بِاللهِ، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، وَالتَّبَرِّي مِنَ الشِّرْكِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أَيْ: سَالِمٍ مِنَ الدَّنَسِ وَالشِّرْكِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: الْقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ الصَّحِيحُ، وَهُوَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ لِأَنَّ قَلْبَ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ مَرِيضٌ"[3].

إضافة إلى أن هناك تلازمًا بين السلوك والاعتقاد؛ فالسلوك الظاهرُ مرتبطٌ بالاعتقادِ الباطن، فأيُّ انحراف في الأخلاقِ إنما هو من نقص الإيمان الباطن.

والتزكية ثمرة العبادات وخلاصة نتائجها، فليست العبادات في هذه الظواهر من ركوع أو سجود، أو مجرد تلفظ بألفاظ، أو إرهاق النفس بالصوم، أو إجهاد البدن في الحج، وإنما هو ما وراء ذلك كله، مما ينسكب في القلب ويملأ النفس من الروحانية والإيمان، والتي تجعل نفس الإنسان في مراتب عليا من الطهارة والنقاء والصفاء.

إذاً: هي غاية هذه العبادات، كما قال ﷻ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[4]، إنما هو محض التطهير والتزكية، وقال في الغاية من الصوم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة – بيروت، ج٣، ص: ٦١.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٨: ٨٩.

(٣) تفسير ابن كثير، ج، ج ٣، ص: ٣١٤.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] فكل عمل خلاصته وثمرته هي هذه النفس وتزكيتها.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

المبحث الثالث
وسائل تزكية النفس

بعد أن نستعرض شرائع الإسلام كلها ونَسْتَقْرِئها جميعاً - سواء كانت عقائد أو عبادات أو معاملات - وننظر ارتباط هذا بالتزكية والتطهير؛ سنتبين بعد هذا الاستقراء أنه ليس للتزكية أعمال خاصة من مجموع أعمال الدين وعقائده، بل جميع شرائع الإسلام وعقائده وآدابه إنما هي أعمال غايتها ونهايتها التزكية والتطهير، ما دمنا عرفنا أن الزكاة هي الطيبة والطهر والبعد عن الدنس.

وإذا كان الأمر كذلك، فمن فتح عليه باب أي طاعة فهي وسيلة من وسائل التزكية، ويمكن أن نجمل هذه الوسائل في عناصر كبرى تحتاج كثيرا من الشرح والتوضيح والاطناب، ولطبيعة البحث سأذكر بعض هذه العناصر وأجملها في الشرح فيما يلي:

أولاً: الإيمان بالله تعالى.

إن الإنسان لا يزكو أبداً ما دام لم يؤمن بالله حق الإيمان، ولم يحقق التوحيد ويتبرأ من الشرك بجميع مظاهره وألوانه، ولاشك أن أوجب أنواع التزكية، التزكية بالتوحيد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[1] وهذه النجاسة ليست نجاسة عينية بحيث أن المسلم إذا مس كافرا يغسل يده، فقد أبيح للمسلم أن يتزوج بالكتابية ولا يسلم من عرقها، والواجب عليه من الطهارة كما هو الواجب على من تزوج بالمسلمة، فهذه نجاسة معنوية، قلوبهم نجسة لأنها لا تعرف الله ﷻ معرفة صحيحة، ولا تعبده وحده لا شريك له عبادة صحيحة. ونجاسة الشرك ملازمة لا تطهرها المصائب المكفرة ولا الحسنات الماحية، بعكس تدنس

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

المسلم بشيء من نجاسات المعاصي التي هي دون الشرك، فإنما تطهرها المصائب المكفرة والحسنات الماحية، ودعاء المؤمنين، واستغفار الملائكة، وغير ذلك من مكفرات الذنوب والخطايا، لذا كان أول الواجبات أن يطهر العبد نفسه من أنجاس الشرك، ويزكيها بالتوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[1] قال ابن عباس: "هم الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله"[2]. وكذلك قول موسى عليه السلام لفرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إلى أَن تَزَكَّى﴾[3]: أَيْ: تُسْلِمُ فَتَطْهُرَ مِنَ الذُّنُوبِ. وَرَوَى الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هَلْ لَكَ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. (وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ) أَيْ وَأُرْشِدُكَ إِلَى طَاعَةِ رَبِّكَ (فَتَخْشى) أَيْ تَخَافُهُ وَتَتَّقِيهِ"[4]. فأصل التزكية، التزكية بالتوحيد، بل لا تزكو النفس بسائر أنواع العبادات حتى تزكو بالتوحيد أولا.

إن القلوب إذا اتصلت بالله، وذاقت حلاوة معرفته؛ فإن تغيير الظاهر يتم بعد ذلك بسهولة ويسر وبأدنى مجهود، فإذا زاد الإيمان في القلب تحسنت أحواله، وانتقل من المرض إلى الصحة، وانعكس ذلك على علاقته بربه، وازداد تعلقه به، ومن ثم تحقيق الحنيفية ومعها الأمن والطمأنينة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٦ – ٧.

(٢) تفسير الطبري، ج٢١، ص: ٤٣٠.

(٣) سورة النازعات، الآية: ١٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ج١٩، ص: ٢٠١.

مُهْتَدُونَ﴾[1].

فبداية الإصلاح إنما تكون بربط القلوب بالله تعالى، وغرس الإيمان فيها؛ ليصبح هو الدافع لجميع الأعمال. فلابد من أن نبدأ بالإيمان، ونعمل على تمكينه في القلوب؛ ليصبح إيمانا عميقا ضاربا بجذوره في جنبات القلب، فيحرق الشهوات والشبهات، ويبدد الحجب والظلمات.[2]

ويلحق بالتوحيد الإخلاص، وهو أساس النجاح والظفر بالمطلوب في الدنيا والآخرة، فهو للعمل بمنزلة الأساس للبنيان، وبمنزلة الروح للجسد، فكما أنه لا يستقر البناء ولا يتمكّن من الانتفاع منه إلا بتقوية أساسه وتعاهده من أن يعتريه خلل فكذلك العمل بدون الإخلاص، وكما أن حياة البدن بالروح فحياة العمل وتحصيل ثمراته بمصاحبته وملازمته للإخلاص، وقد أوضح ذلك الله في كتابه العزيز فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3]، ولما كانت أعمال الكفار التي عملوها عارية من توحيد الله وإخلاص العمل له سبحانه؛ جعل وجودها كعدمها فقال: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾[4]، والإخلاص أحد الركنين العظيمين اللذين انبنى عليهما قبول العمل، وهما إخلاص العمل لله وحده والمتابعة لرسول الله -ﷺ-، ولهذا قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، قال: "أخلصه وأصوبه"، قيل: يا أبا علي ما أخلصه

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٢) الإيمان أولا...فكيف نبدأ به؟ ! مجدي الهلالي، الطبعة الثانية، ١٤٣٩-٢٠١٨م، ص: ١٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا، فالخالص: ما كان لله، والصواب: ما كان على السنة.(١)

وكلما كان توحيد العبد أعظم كانت مغفرة الله تعالى له أتم فمن لقيه لا يشرك به شيئًا ألبته غفر الله له ذنوبه كلها كائنة ما كانت، واعلم أن أشعة لا إله إلا الله تبدد من ضباب الذنوب وغيوبها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور وتفاوت أهلها في ذلك النور - قوة وضعفًا - لا يحصيه إلا الله، فمن الناس: من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس، ومنهم: من نورها في قلبه كالكوكب الدري، ومنهم كالسراج المضيء ...؛ ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة، علمًا وعملاً، ومعرفة وحالاً، وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهه ولا شهوة ولا ذنبًا إلا أحرقه، وهذه حال الصادق في التوحيد الذي لم يشرك بالله شيئا، فأي ذنب وأي شهوة دنت من هذا النور أحرقها فسماء إيمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته.(٢)

وحتى يكون الإخلاص حاضرا في نفس المؤمن يجب عليه استحضار النية في كل عمل يعمله بقدر الإمكان، وأن يحرص الإنسان على الاستتار بالأعمال التي يمكن الاستتار بها، فيحرص على أن تكون أعماله خفية عن أعين الناس، وألا يحرص على إظهارها.

---

(١) تفسير السعدي، ص: ٣٧٧.

(٢) تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، هذبه: عبدالمنعم صالح العلي العزي، دار البشير للثقافة والعلوم-طنطا، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ص: ١٨٦، ١٨٧.

ثانيًا: التزكية بأداء الواجبات وترك المحرمات.

إن أولى ما يتقرب به العبد إلى ربه بعد توحيد الله ﷻ أداء الفرائض واجتناب المحرمات، والعمدة في ذلك حديث الولي في صحيح البخاري عنه ﷺ قال: " إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"[1].

(وما تَقربَ إلى عبدي بشَيءٍ أَحبَ إليَّ ممّا افتَرضتُ عليه)، يعني أن الله يقول: ما تقرب إلي الإنسان بشيء أحب إلي مما افترضه عليه، يعني أن الفرائض أحب إلى الله من النوافل، فالصلوات الخمس مثلاً أحب إلى الله من قيام الليل، وأحب إلى الله من النوافل، وصيام رمضان أحب إلى الله من صيام الاثنين والخميس، والأيام الست من شوال، وما أشبهها. كل الفرائض أحب إلى الله من النوافل.[2]

فينبغي على العبد أن يبدأ بالفرائض فيستكملها أولاً؛ لأنها رأس المال، فينظر في صلاته هل يصلي في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي ويخشع في الصلاة، ويتم الركوع والسجود، فيصلي في أول الوقت وفي الجماعة ويأتي بشرائط الصلاة وسنن الصلاة، هل يصوم شهر رمضان كما أمر الله ﷻ، هل عنده مال تجب فيه الزكاة، هل يستطيع حج بيت الله

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم: ٦٥٠٢.

(٢) شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: ١٤٢٦ هـ، ج٢، ص: ٦١.

الحرام، فهكذا ينبغي على العبد أن يبدأ طريق التزكية بأداء الفرائض، وأفضل الأعمال أداء ما افترض الله ﷻ والورع عما حرم الله.

ثالثًا: تزكية النفس بالنوافل.

فبعد أن يزكي العبد نفسه بالتوحيد وأداء فرائض الله ﷻ يزكي نفسه بكثرة النوافل فيفتح على نفسه أبواب النوافل نوافل الصلاة ونوافل الصيام ونوافل الحج والعمرة ونوافل الصدقات بعد أداء الزكاة الواجبة ونوافل الذكر والدعاء والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

النوافل تقرب إلى الله وهي تكمل الفرائض، فإذا أكثر الإنسان من النوافل مع قيامه بالفرائض، نال محبة الله، فيحبه الله، فالعبد يفعل الفريضة مخافة العقوبة ورجاء الأجر، أما النافلة فإنه يفعلها بإخلاص نية التحبب إلى الله ﷻ فهو إذا لم يؤد الفرض متعرض للعقوبة، ولكن النافلة ليست هناك عقوبة في تركها، فلما خلصت النية في النوافل؛ كانت النوافل هي السبب الموصل إلى محبة الله ﷻ دون الفرائض، فطريق التزكية بالتوحيد ثم بأداء الفرائض ثم بالتحبب والتقرب إلى الله ﷻ بالنوافل المشروعة لتزكية النفس.

ومن فضل الله – جل وعلا – علينا أن جاء هذا الدين بعبادات شتى تملأ حياة المسلم في كل الظروف والأحوال، بالليل والنهار، بالقلب والبدن، فهناك السنن القولية، والسنن الفعلية والقلبية التي يعتبر أداؤها من أهم عوامل بناء النفس، من قيام ليل، وصيام تطوع، وصدقة، وقراءة قرآن، وذكر لله آناء الليل وأطراف النار، ولا شك أن هذه العبادات تقوِّي الصلة بين العبد وبين ربه، وتوثِّق عُرى الإيمان في القلب؛ فتنبني النفس وتزكو بها، وتأخذ من كل نوع من العبادات المتعددة بنصيب.

ومن أفضل النوافل التي يفعلها العبد:

١ – نوافل الصلاة:

نوافل الصلوات من أزكى الأعمال عند الله، كالسنن الرواتب، وصلاة الضحى، وقيام الليل، والليل ثمين بدجاه، وقيامه من نعوت الصالحين المبشرين بجنة النعيم، وهو دليل على رجحان العقل والإيمان، وقربة إلى رب العالمين. يقول النبي - ﷺ -: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[(١)].

٢ - الإكثار من الذكر:

ذكر الله ميزان الرفعة والتكريم، وهو خير ما يعطر به اللسان، وهو باب مفتوح بين العبد وبين ربه ما لم يغلقه العبد بغفلته، يقول ابن القيم: "إنه - أي الذكر - يورثه ذكر الله تعالى له، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[(٢)]، ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفاً"[(٣)]

٣ - تلاوة القرآن الكريم:

القرآن الكريم عُمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، بتلاوته والعمل به يعلو الشأن، ويزهو القدر ويزيد الإيمان، والقرآن العظيم أصل العلوم وأسها، ومنه تؤخذ الأخلاق والآداب، وحفظ كتاب الله حفظ بإذن الله للعبد من الشرور والفتن، وحصن من الشبهات والشهوات.

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، بَاب مَا جَاءَ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ، رقم: ١٣٣٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٩ م، ص: ٤٢.

٤ - نوافل الصيام:

والصوم تزكية للنفوس، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١]، يعني: تزكو نفوسكم، فصيام النافلة، كالاثنين والخميس، ويوم عرفة، ويوم عاشوراء، وستة من شوال، ثلاثة أيام من كل شهر، فصيام ثلاثة أيام من كل شهر كصيام جميع الشهر، كل يوم بعشرة أيام كرمًا من الله ومنة. وصيامها هي وصية النبي -ﷺ -لأبي هريرة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلاَثٍ: «صِيَامِ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَكْعَتَيِ الضُّحَى، وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَنَامَ»[٢].

٥ - سمو الأخلاق:

حسن الخلق يستميل القلوب، وبحسن المنطق وعلو الخلق، ينجذب الخلق، وحسن الخلق لا يتطلب بذل مال ولا إجهاد نفس، وما حسن الخلق إلا طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى.

وخلاصة القول: أن لتزكية النفس وسائل كثيرة، والشرائع كلها تزكية، فالتوحيد والإخلاص، وأداء العبادات وترك المحرمات، والإكثار من النوافل، وحسن الأخلاق كلها وسائل للتزكية.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صِيَامِ أَيَّامِ البِيضِ، رقم: ١٩٨١.

المبحث الرابع
فوائد وثمار تزكية النفس.

المؤمن الذي زكى نفسه بطاعة الله ﷻ، والمسارعة إلى اغتنام الحسنات، والحذر من السيئات؛ يكرمه الله بالفلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[(١)]، وهذا الفلاح لا يقف على حد، وإنما هو شامل لأمور الدنيا والآخرة، وسوف أذكر في هذه السطور بعض نواحي هذا الفلاح فيما يلي:

أولاً: تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى:

غاية التزكية هي تحقيق كمال العبودية لله ﷻ، والوصول إلى أعلى مراتب الذل والحب لله ﷻ؛ لأن العبودية هي كمال الحب مع تمام الذل، والله ﷻ وصف أكابر الخلق بالعبودية، فوصف نبيه – ﷺ – بالعبودية في أشرف مقاماته، مقام الإسراء، ومقام التحدي، ومقام الدعوة إلى الله ﷻ، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾[(٢)].

فالعبودية لله ﷻ تشريف وتكريم، فوظيفة الرسل وأتباع الرسل أن يحرروا الناس من عبادة غير الله ويعبدوهم لله ﷻ، ويشرفوهم بأن يجعلوهم عبيداً حقيقيين لله ﷻ.

قال الإمام ابن تيمية: "وَإِنَّمَا الدَّين الْحق هُوَ تَحْقِيق الْعُبُودِيَّة لله بِكُل وَجه وَهُوَ تَحْقِيق محبَّة الله بِكُل دَرَجَة وبقدر تَكْمِيل الْعُبُودِيَّة تكمل محبَّة العَبْد لرَبه وتكمل محبَّة الرب لعَبْدِهِ وبقدر نقص هَذَا يكون نقص هَذَا وَكلما كَانَ فِي الْقلب حب لغير الله كَانَت فِيهِ عبودية لغير

---

(١) سورة الشمس، الآية: ٨، ٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١.

الله بِحَسب ذَلِك وَكلما كَانَ فِيهِ عبودية لغير الله كَانَ فِيهِ حب لغير الله بِحَسب ذَلِك."[1]

إلى أن قال: " فَإِن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله مَا يمنعهُ عَن عبوديته لغيره وَمن حلاوة محبته لله مَا يمنعهُ عَن محبَّة غَيره إِذْ لَيْسَ عِنْد الْقلب السَّلِيم أحلى وَلَا ألذ وَلَا أطيب وَلَا أسر وَلَا أنعم من حلاوة الْإِيمَان المتضمن عبوديته لله ومحبته لَهُ وإخلاص الدَّين لَهُ وَذَلِكَ يَقْتَضِي انجذاب الْقلب إِلَى الله فَيصير الْقلب منيبا إِلَى الله خَائفًا مِنْهُ رَاغِبًا رَاهِبًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾[2]"[3]

فالتزكية في بدايتها ونهايتها لا تخرج عن مقام تحقيق العبودية الكاملة لله ﷻ؛ لأن المرء لو علم الحلال والحرام؛ فأتى الحلال واجتنب الحرام، فهذا منتهى الطاعة، ومنتهى العبودية لله ﷻ.

ثانيًا: طمأنينة القلب:

طمأنينة القلب هي من أعظم نعم الله على المؤمن، وذلك أن سكون النفس واستقرارها هو الدافع للخير والشعور بالغبطة والسعادة، وبقيمة الحياة وهدفها، والثقة بالله ووعده، ولذا كانت طمأنينة القلب هي حصنه الحصين الذي يستعصي على الشياطين، وذلك أن النفس

---

(١) العبودية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، تحقيق: محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة السابعة المجددة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، ص: ١١٩.

(٢) سورة ق، الآية: ٣٣.

(٣) العبودية، ابن تيمية، ص: ١٢٣.

المطمئنة والقلب الثابت لا سبيل إلى زعزعته بإذن الله.[١]

إن التزكية سبب طهارة القلب وصلاحه، والقلب هو قطب الرحى، فإن الله جل وعلا قال: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٢].

فإذا عميت القلوب عميت معها البصائر، وتعذّرت كل أسباب الفلاح، فيضل الإنسان، ويتخبط في عمله -عياذاً بالله ﷻ-؛ ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام - كما في صحيح مسلم -: " إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ".[٣]

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام مبيناً أن الأمور كلها مرتبطة بالقلب وصلاحه: "ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب".[٤]

أفلا يكون لهذه التزكية الأهمية الأولى والكبرى في حياة الإنسان المؤمن؟ وإن كان فيه خير، وإن كان مصلياً عابداً، وإن كان متقرباً ذاكراً، فإن فقه التزكية هو الذي يقويه على هذه الطاعات، ويجني له ثمرتها على أتم وأكمل صورة بإذن الله ﷻ.

---

(١) أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ج٢، ص: ٤٥٣.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب كل المسلم على المسلم حرام، رقم: ٦٦٣٥.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، بَابُ فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، رقم: ٥٢، وصحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم: ١٥٩٩.

ثالثًا: حلاوة الإيمان:

إن من سعادة المؤمن في الدنيا أن يجد للإيمان حلاوة يتذوقها في قلبه، فكما أخبر النبي - ﷺ أن للإيمان طعما فقال: " ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً"(١).

ومعنى وجود حلاوة الإيمان هو استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات فيما يرضى الله- تعالى-ورسوله -ﷺ-، وإيثار ذلك على عرض الدنيا، رغبة فى نعيم الآخرة، الذي لا يبيد ولا يفنى.

قال ابن القيم: " وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رَوْحَهُ -يَقُولُ: إِذَا لَمْ تَجِدْ لِلْعَمَلِ حَلَاوَةً فِي قَلْبِكَ وَانْشِرَاحًا، فَاتَّهِمْهُ، فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَى شَكُورٌ. يَعْنِي أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُثِيبَ الْعَامِلَ عَلَى عَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ حَلَاوَةٍ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ، وَقُوَّةِ انْشِرَاحٍ وَقُرَّةِ عَيْنٍ. فَحَيْثُ لَمْ يَجِدْ ذَلِكَ فَعَمَلُهُ مَدْخُولٌ."(٢)

رابعًا: الحياة الطيبة:

إن المسلم الذي تزكو نفسه بعمل الطاعات واجتناب المحرمات يسعد في الدنيا سعادة لا يضل فيها ولا يشقى، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾(٣) "والمعنى إن من اتبع هداي الذي جاءت به رسلي فلن يضل ولن يشقى، أما من أعرض عن ذِكْرِي أي: عن هداي الذي جاءت به رسلي، واشتملت عليه كتبي

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً، رقم: ٦٠.

(٢) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ج٢، ص: ٦٣.

(٣) سورة طه، الآيات: ١٢٣-١٢٥.

فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا. أي: فإن لهذا المعرض معيشة ضيقة مليئة بالهم والغم والأحزان وسوء العاقبة، حتى ولو ملك المال الوفير، والحطام الكثير؛ فإن المعيشة الطيبة لا تكون إلا مع طاعة الله، وامتثال أمره، واجتناب نهيه"[(١)]. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(٢)].

"وَقَدْ فُسِّرَتِ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ بِالْقَنَاعَةِ وَالرِّضَا، وَالرِّزْقِ الْحَسَنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالصَّوَابُ: أَنَّهَا حَيَاةُ الْقَلْبِ وَنَعِيمُهُ، وَبَهْجَتُهُ وَسُرُورُهُ بِالْإِيمَانِ وَمَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَحَبَّتُهُ، وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا حَيَاةَ أَطْيَبُ مِنْ حَيَاةِ صَاحِبِهَا، وَلَا نَعِيمَ فَوْقَ نَعِيمِهِ إِلَّا نَعِيمَ الْجَنَّةِ، كَمَا كَانَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ يَقُولُ: إِنَّهُ لَتَمُرُّ بِي أَوْقَاتٌ أَقُولُ فِيهَا إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ، وَقَالَ غَيْرُهُ: إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ يَرْقُصُ فِيهَا طَرَبًا.

وَإِذَا كَانَتْ حَيَاةُ الْقَلْبِ حَيَاةً طَيِّبَةً تَبِعَتْهُ حَيَاةُ الْجَوَارِحِ، فَإِنَّهُ مَلِكُهَا، وَلِهَذَا جَعَلَ اللهُ الْمَعِيشَةَ الضَّنْكَ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ، وَهِيَ عَكْسُ الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ."[(٣)]

وأرى أن الحياة الطيبة تشتمل على جوانب الحياة المختلفة، من سعة في الرزق، وبركة في الأولاد، وطمأنينة في القلب...إلخ.

خامسًا: الفوز بالجنة في الآخرة:

إذا كانت حياة أهل الإيمان في الدنيا حياة طيبة مع ما فيها من منغصات وأدار وهموم، فإن السعادة الحقيقية والفوز الحقيقي هو الفوز بالجنة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ

---

(١) التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى ج٩، ص: ١٦٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٣) مدارج السالكين، ج٣، ص: ٢٤٣.

وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1]، ولا ينال العبد الفوز بالجنة، والسعادة في الآخرة إلا بتزكية نفسه، وتطهيرها من أدرانها، والاستقامة على طاعة الله تعالى.

إنها الثمرة العظمى لأصحاب النفوس المطمئنة الذين زكوا نفوسهم وبذلوا جهدهم في مجاهدتها وتحصينها من الآثام، فنالوا البشرى وتحقق لهم المنى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[2].

فالتزكية سبب لدخول الجنة، وستار ووقاية من النار كما قال ﷻ: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾[3].

فالجنة دار نعيم لمن آمن وعمل صالحا، وهؤلاء هم العباد الصالحون الذين زكت نفوسهم؛ فأكرمهم الله بالنعيم المقيم والفوز العظيم.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة النازعات، الآيات: ٤٠، ٤١.

(٣) سورة طه، الآيات: ٧٥ – ٧٦.

المبحث الخامس
الدعاة إلى الله وحاجتهم للتزكية

إن أولى الناس بالتزكية هم الدعاة إلى الله، بل لا تتم جوانب القدوة – معرفة وثمرة وجنيًا لخيرها – إلا بهذه التزكية، فالتزكية ليست مفقودة – أو ناقصة – عند العصاة فحسب، بل هي ناقصة أو مفقودة عند كثير من الطائعين؛ لذا وجب التذكير بها لهم، وهم فيها قدوة، فإذا فُقدت التزكية من أهل الخير والصلاح والطاعة، فماذا في بقية الناس من المتلبسين بالبدع أو المنغمسين في الشهوات والمعاصي؟ فهي – لا شك – أكثر بُعداً ومجانبة لحصولها في أنفسهم؛ لذلك نوجه الحديث لنا نحن الذين نظن بأنفسنا خيراً؛ لأننا أحوج ما نكون إلى هذا الأمر، ولأن فقده فينا خسارة عظمى لنا، وللناس أيضًا ممن هم أبعد منا عن الخير، أو أقصر همة في الاستباق إليه.

ولذا كان المنهجُ الإلهيُّ –في إصلاحِ البشريَّةِ وهدايتِها إلى طريقِ الحقِ –مُعتمِداً على وجودِ القُدْوَةِ التي تحوِّل تعاليمَ ومبادئَ الشريعةِ إلى سلوكٍ عمليٍّ، وحقيقةٍ واقعةٍ أمام البشر جميعًا؛ فكان رسول الله –ﷺ –هو القدوةَ التي تترجم المنهج الإسلامي إلى حقيقة وواقع، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1]، ولما سُئِلَت أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها –عن خُلُقِهِ –ﷺ –قالت: "كان خُلُقُهُ القُرآنَ".[2]

إذا كانت التزكية هي أحد مهام النبي – ﷺ–مع أمته؛ فلقد زكت نفسه قبل أن يدعو غيره إلى ذلك. والمتأمل في سيرته–ﷺ–قبل البعثة وبعدها يرى هذا واضحا.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٢) الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ – ١٩٨٩، ج١، ص: ١١٥، ح: ٣٠٨.

فقبيل النبوة حبّب إلى رسول الله -ﷺ- الخلوة عن الخلق، والانصراف إلى الخالق، لما في الخلوة من صفاء النفس، وهدوء البال، والتفكر في ملكوت الله، وعظيم خلقه، وجليل قدرته، فكان يخلو بغار حراء في رمضان من كل عام، ويطعم من جاءه من الفقراء والمساكين، فإذا قضى جواره من شهره كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعا، أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، وكانت السيدة خديجة-رضي الله عنها- تعينه على هذه الخلوة وتعدّ له الزاد والطعام، وكان رسول الله يرجع إليها في أثناء الخلوة ليتعهدها، ويأخذ زاده، وما زال يخلو ويتعبد بهذا الغار حتى أكرمه الله بالنبوة، ونزل عليه الوحي.(١)

كانت هذه الخلوة التي حببت إلى نفس النبي ﷺ لونًا من الإعداد الخاص، وتصفية النفس من علائق المادية البشرية إلى جانب تعهده الخاص بالتربية الإلهية والتأديب الرباني في جميع أحواله، وقد أخذ بعض أهل السلوك إلى الله من ذلك، فكرة الخلوة مع الذكر والعبادة في مرحلة من مراحل السلوك، لتنوير قلبه وإزالة ظلمته وإخراجه من غفلته وشهوته وهفوته، ومن سنن النبي -ﷺ- سنة الاعتكاف في رمضان وهي مهمة لكل مسلم سواء كان حاكمًا أو عالمًا، أو قائدًا، أو تاجرًا ... لتنقية الشوائب التي تعلق بالنفوس والقلوب.(٢)

وأما بعد البعثة فكان من أوائل ما نزل على النبي-ﷺ-قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا

---

(١) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، دار القلم – دمشق، الطبعة: الثامنة – ١٤٢٧ هـ، ج١، ص: ٢٥٥.

(٢) السِّيرةُ النّبوية -عرضُ وقائع وَتحليل أحدَاث، عَلي محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م، ج١، ص ٧٤.

سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1]، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبآكد الأوقات وأفضلها، وهو قيام الليل، ثم أمره بترتيل القرآن الذي به يحصل التدبر والتفكر، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيؤ والاستعداد التام له، ثم أمره بذكر الله ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ وهو شامل لأنواع الذكر كلها ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا﴾ أي: انقطع إلى الله تعالى، فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه، هو الانفصال بالقلب عن الخلائق، والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدني من رضاه.[2]

ومن الناحية العملية كان النبي -ﷺ- يجتهد في سائر العبادات، من قيام، وصيام، وذكر...وغيرها، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ نَبِيَّ اللهِ -ﷺ- كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ: أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟ "[3].

وهذا الإعداد الإيماني هو الذي يساعد الداعية في نجاح دعوته، لأن مشقات الدعوة كثيرة، وطريقها صعب؛ لذا لمَّا أمره الله بالصلاة خصوصا، وبالذكر عموما-في سورة المزمل-وذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال، وفعل الثقيل من الأعمال، أمره بالصبر على ما يقول فيه المعاندون له ويسبونه ويسبون ما جاء به.

إن على الداعية أن يقتفي أثر النبي -ﷺ- في سائر أحواله وخصوصا فيما يتعلق بجانب

---

(١) سورة المزمل، الآيات: ١-٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة-بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠ م، ص: ٨٩٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، بَابٌ قَوْلُهُ: لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، رقم: ٤٨٣٧.

التزكية حتى ينجح في دعوته.

فعلى الداعي أن يتصف بالإيمان العميق الثابت الذي لا يتزعزع مهما صادفته محنة أو شدة، ومهما كانت حاله من ضعف وقلة، ومهما كان حال الكفرة من قوة ومنعة، حتى لو بقي وحده في الأرض، والذي من ثمراته محبة العبد لربه، ومحبة الرب لعبده، والولع بذكره تعالى في كل حين، فلا يفتر عنه لسان الداعي ولا يخلو منه قلبه، والإكثار من تلاوة كتابه -ﷻ-، فهو ربيع قلبه، وأنيسه في وحدته، والنور الذي ينير صدره، ويأخذ نفسه بأوراد الذكر التي وردت بها السنة النبوية، يتلوها بعد صلاة الصبح وعند النوم، وعند الخروج والدخول، والأكل والشرب واللباس، والسفر والإقامة، وفي الأسحار، ويأنس بمناجاة الله بالخلوة، ويتنعَّم بطاعته ولا يستثقلها، وأن يتعلق بربه، ويتوكل عليه في جميع أموره؛ لأنه يعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنَّ الله تعالى يكفي من يتوكل عليه ويفوّض الأمور إليه ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.(١)

هذه التزكية سبب رئيسي لنجاح الداعية في دعوته، ومصابرته على عقبات الطريق، ومشقات الدعوة؛ فيجب على الدعاة أن يحرصوا عليها حتى تثمر دعوتهم.

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أزكى خلق الله محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد. فبعد العيش في ظلال هذه الصفحات البسيطة عن تزكية النفس وأهميتها للدعاة إلى الله تعالى، قد توصلت إلى أهم النتائج التالية:

١ – أن التزكية للنفوس: تطهيرها، وتطبيبها، وتنقيتها من قبائحها؛ فالنفس الزكية: هي الطيبة الطاهرة البعيدة عن كل ما يدنس النفوس من غش وحقد وحسد وظلم.

٢ – أن تزكية النفوس مطلب عظيم من مطالب الرسالة، بل هي ربع الرسالة الإسلامية.

٣ – أن لتزكية النفس وسائل كثيرة، والشرائع كلها تزكية، فالتوحيد والإخلاص، وأداء العبادات وترك المحرمات، والإكثار من النوافل، وحسن الأخلاق كلها وسائل للتزكية.

٤ – إن المؤمن الذي زكى نفسه بطاعة الله ﷻ، والمسارعة إلى اغتنام الحسنات، والحذر من السيئات؛ يكرمه الله بالفلاح في الدنيا والآخرة.

٥ – إن التزكية سبب رئيسي لنجاح الداعية في دعوته، ومصابرته على عقبات الطريق، ومشقات الدعوة؛ فيجب على الدعاة أن يحرصوا عليها حتى تثمر دعوتهم.

التوصيات:

١ – أوصي نفسي وإخواني الدعاة بأن يتفقدوا أحوالهم الظاهرة والباطنة، فماذا ينفع الداعية إذا فاز الناس في الآخرة وكان من الخاسرين.

٢ – أوصي الباحثين بالاهتمام بما يخص الداعية من دراسات تعينه على أداء مهامه الدعوية، سواء من ناحية البناء الذاتي للداعية، إيمانيًا – وأخلاقيًا – مهارات دعوية... إلخ، أو من ناحية التكوين العلمي والثقافي.

وفي الختام: أسأل الله – تعالى – أن أكون قد وفقت فيما أردت إبرازه في هذا البحث، والله أسأل أن يغفر ما فيه من قصور أو زلل، إنه نعم المولى ونعم النصير.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

١ - أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٢ - إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة - بيروت.

٣ - الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩.

٤ - الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م.

٥ - الإيمان أولًا... فكيف نبدأ به؟! مجدي الهلالي، الطبعة الثانية، ١٤٣٩ - ٢٠١٨م.

٦ - البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، تحقيق: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م.

٧ - تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٨ - تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر - بيروت، الطبعة الجديدة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٩ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى

١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠ م.

١٠ – التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى.

١١ – تهذيب مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، هذبه: عبدالمنعم صالح العلي العزي، دار البشير للثقافة والعلوم – طنطا، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

١٢ – جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠ م.

٣ – الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة.

١٤ – سنن ابن ماجه، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي.

١٥ – السِّيرةُ النّبوية – عرضُ وقائع وَتحليل أحدَاث، عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨ م.

١٦ – السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، دار القلم – دمشق، الطبعة: الثامنة – ١٤٢٧هـ.

١٧ – شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: ١٤٢٦ هـ.

١٨ – الشرح الكبير على متن المقنع، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الحنبلي، أبو الفرج، شمس الدين، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع

١٩ – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري

الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م.

٢٠ - صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢١ - صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٢٢ - الطبقات الكبرى، لابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م.

٢٣ - العبودية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، تحقيق: محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة السابعة المجددة ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥م.

٢٤ - لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

٢٥ - مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢٦ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م.

٢٧ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، المكتبة العلمية - بيروت.

٢٨ – المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ..

٢٩ – مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر – بيروت، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م.

٣٠ – موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net.

٣١ – الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، الطبعة: (من ١٤٠٤ – ١٤٢٧ هـ)، الطبعة الثانية، دار السلاسل – الكويت.

٣٢ – نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، مطبعة سفير بالرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٣ – الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية، محمد بن قاسم الأنصاري، أبو عبد الله، الرصاع التونسي المالكي، المكتبة العلمية، الطبعة: الأولى، ١٣٥٠هـ.

٣٤ – الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٩م.

فهرس الموضوعات

ملخص البحث باللغة العربية:	١٥٩٠
ملخص البحث باللغة الإنجليزية:	١٥٩٢
مقدمة	١٥٩٤
المبحث الأول التعريف بالتزكية، والألفاظ ذات الصلة	١٥٩٧
الألفاظ ذات الصلة بالتزكية:	١٥٩٩
المبحث الثاني أهمية تزكية النفس ومكانتها في الإسلام	١٦٠٣
المبحث الثالث وسائل تزكية النفس	١٦٠٨
أولاً: الإيمان بالله تعالى	١٦٠٨
ثانيًا: التزكية بأداء الواجبات وترك المحرمات	١٦١٢
ثالثًا: تزكية النفس بالنوافل	١٦١٣
المبحث الرابع فوائد وثمار تزكية النفس	١٦١٦
أولاً: تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى:	١٦١٦
ثانيًا: طمأنينة القلب:	١٦١٧
ثالثًا: حلاوة الإيمان:	١٦١٩
رابعًا: الحياة الطيبة:	١٦١٩
خامسًا: الفوز بالجنة في الآخرة:	١٦٢٠
المبحث الخامس الدعاة إلى الله وحاجتهم للتزكية	١٦٢٢
الخاتمة	١٦٢٦

التوصيات:	١٦٢٦
المصادر والمراجع	١٦٢٧
فهرس الموضوعات	١٦٣١